واقع المحتوى العلمي العربي على الإنترنت

د. خلف الطاهات/ الأردن

إنَّ مساهمة الباحثين العرب، ومنهم الأردنيون، في إنتاج محتوى علمي مُتاح على الإنترنت هي مساهمة خجولة؛ ولذلك أسباب جوهريّة تتمثل في ما يلي:

أولًا: سياسات التعليم العالي لا تنظر للبحث العلمي كأولويّة وطنيّة، ولا تعترف بدور ورسالة البحث العلمي في حل مشكلات المجتمع الاقتصاديّة والتنمويّة والإعلاميّة والاجتماعيّة وغيرها، ولهذا تبقى الأبحاث رهينة أدراج مكاتب كاتبيها لا تشارك الأطراف والمؤسسات ذات الصلة بالمشكلات البحثيّة. وهنا يأتي دور سياسة التخطيط والتحفيز لدى التعليم العالي. فالأصل أن تحدِّد وزارة التعليم العالي الأولويات الوطنيّة للبحث العلمي، وأن تعتمد آليّات أكثر مرونة في تقديم الدَّعم المالي من صندوق البحث العلمي الذي باعتقادي أنَّ وجوده شكليّ لم يتمكّن من استقطاب أو الوصول للباحثين المميّزين، فبالنَّظر في تجربة دعم البحث العلمي في الدول الغربيّة نجد أنَّ هناك مئات الباحثين من الجامعة نفسها يتنافسون في تقديم مشاريع بحثيّة "مخططات" تمسّ صميم المجتمع وقضاياه. وفي حال فوز أيّ مشروع بحثي، فإنَّ هذا الدَّعم يؤخذ بعين الاعتبار لأغراض الترقية في الجامعة. والأهمّ أنَّ الجهة المعنيّة بالبحث العلمي تحرص على تعميق الشراكات الحقيقيّة مع الشركات والمؤسسات في القطاع الخاص والتي بدورها أيضًا توجِّه البحث العلمي بسياق يخدم سياسات المجتمع ككل، وهي مؤسسات تؤمن بأهميّة البحث العلمي في صناعة المعرفة وتجويد المنتجات وغيرها.

للأسف لدينا في الأردن والعالم العربي مئات المؤسسات والشركات ذات السعة الدوليّة والتي -باستثناء مؤسسة "عبدالحميد شومان"- لم نسمع يومًا أنَّ هناك مؤسسة عربيّة تتبنّى الباحثين ومشاريعهم البحثيّة والتي من شأنها في حال تبنيها أن تسهم في تعزيز وصول المحتوى المعرفي العلمي العربي إلى العالميّة من خلال إتاحة هذه الأبحاث عبر قواعد بيانات الشركة وروابطها وشبكات اتصالها المحليّة والإقليميّة والدوليّة.

ثانيًا: الجامعات لا تنظر للأكاديميين على أنَّهم باحثون أصحاب رؤية ورسالة وبيوت خبرة في مجالات تخصُّصهم، وأنَّ المحتوى العلمي الذي يقدِّمونه هو إثراء حقيقي لسمعة الجامعة والوطن، ولهذا يتم التعامل مع الأكاديميين على أنَّهم موظفون تُصرف لهم الرواتب والعلاوات والبدلات لقاء أعمال تدريسيّة ومساهمات إداريّة عاديّة. ولإقامة الدليل على ذلك لننظر إلى مخصصات البحث العلمي التي توفرها صناديق البحث العلمي وعمادات البحث العلمي في كل جامعة، ونسبة ما يُنفق منها على أغراض بحثيّة وإنتاج المعرفة العلميّة. إذ إنَّه وفي نهاية كل عام دراسي يتم نقل كثير من مخصّصات البحث العلمي لأغراض إداريّة أو لتغطية ورشات عمل وغيرها ممّا لا علاقة له بإنتاج المعرفة العلميّة.

ثالثًا: الأكاديميون أنفسهم يعتبرون مشاركتهم في إنتاج المحتوى العلمي "وسيلة" للترقية والحصول على امتيازات ماديّة. غير أنه من جديد اختلفت رؤية الجامعات لأهمية إنتاج وتوفير المحتوى العلمي خارج أطر مكاتب الأكاديميين ورفوف المكتبات المحليّة. فقبول الجامعات والمعاهد العلميّة الأردنيّة والرغبة في التصنيف العالمي للجامعات وفق المؤشرات الدولية، استلزم منها مجاراة هذه المعايير الدوليّة من خلال إلزام الأكاديميين كأحد شروط "الترقية" بضرورة النشر في مجلات علميّة مصنَّفه بقواعد بيانات عالميّة مثل scoups وغيرها، وكذلك إلزام الأكاديميين بإتاحة محتواهم البحثي ونشره على قاعدة بيانات Google scholar، وهي خطوات وإن كانت غير كافية إلّا أنها بداية ممنهجة وصحيحة لمساهمة أكبر للأكاديميين والباحثين العرب في نشر وتوفير وإنتاج المحتوى العلمي إلكترونيًّا.

رابعًا: هناك أجيال في العالم العربي من الباحثين من ذوي المدارس والاتجاهات البحثيّة المختلفة، وأيضًا من ذوي القدرات والإمكانات المتعددة. فهناك الجيل الكلاسيكي من الباحثين وهو الذي يقود الآن القرار الأكاديمي في أغلب المعاهد والكليات الجامعيّة في العالم العربيّ، وهو جيل متمكِّن بحثيًّا إلّا أنه يحتفظ بتقاليد وأعراف أكاديميّة تجعله أقرب ما يكون حبيس المكتب والمكتبة التقليديّة، وهو جيل يعاني من مشكلات حقيقيّة في توظيف التكنولوجيا، والجزء الكبير منه خريج معاهد الاتحاد السوفييتي أو أوروبا الشرقيّة وفرنسا، وهذه الدول لأنَّها غير ناطقة باللغة الإنجليزيّة فإنَّ أغلب أبحاثها ليست متداولة في قواعد البيانات المعروفة دوليًّا والتي

يؤثر نشر الأبحاث فيها على تصنيف الجامعات عالميًّا. ولهذا فإنَّ تأثير هذا الجيل الكلاسيكي من الباحثين محدودٌ جدًا في إتاحة ونشر المحتوى العلمي العربي على المستوى العالمي نظرًا لقدراته اللغويّة والتكنولوجيّة المحدودة.

خامسًا: ثقافة الفِرَق البحثيّة المُشتَرَكَة، حيث إنَّ غاياتها وأهدافها عربيًّا لا ترتقي لمستوى إثراء المعرفة الحقيقيّة. وهي ثقافة لا تسهم في رفد المحتوى العلمي العربي لأنَّها ببساطة تنحصر في ثقافة "سدّ الدَّيْن" بين الباحثين. فخلافًا للباحثين الأجانب في الجامعات والمعاهد الأوروبيّة والأميركيّة وغيرها فإنَّ ثقافة الفريق البحثي والتشارك في إجراء البحوث هي ثقافة أكاديميّة رازنة ومتجذِّرة ولها دلالاتها، وهي فرق لا تشكَّل داخل الأقسام والكليات اعتباطًا أو دون هدف، فكل عضو في فريق البحث له دور كبير

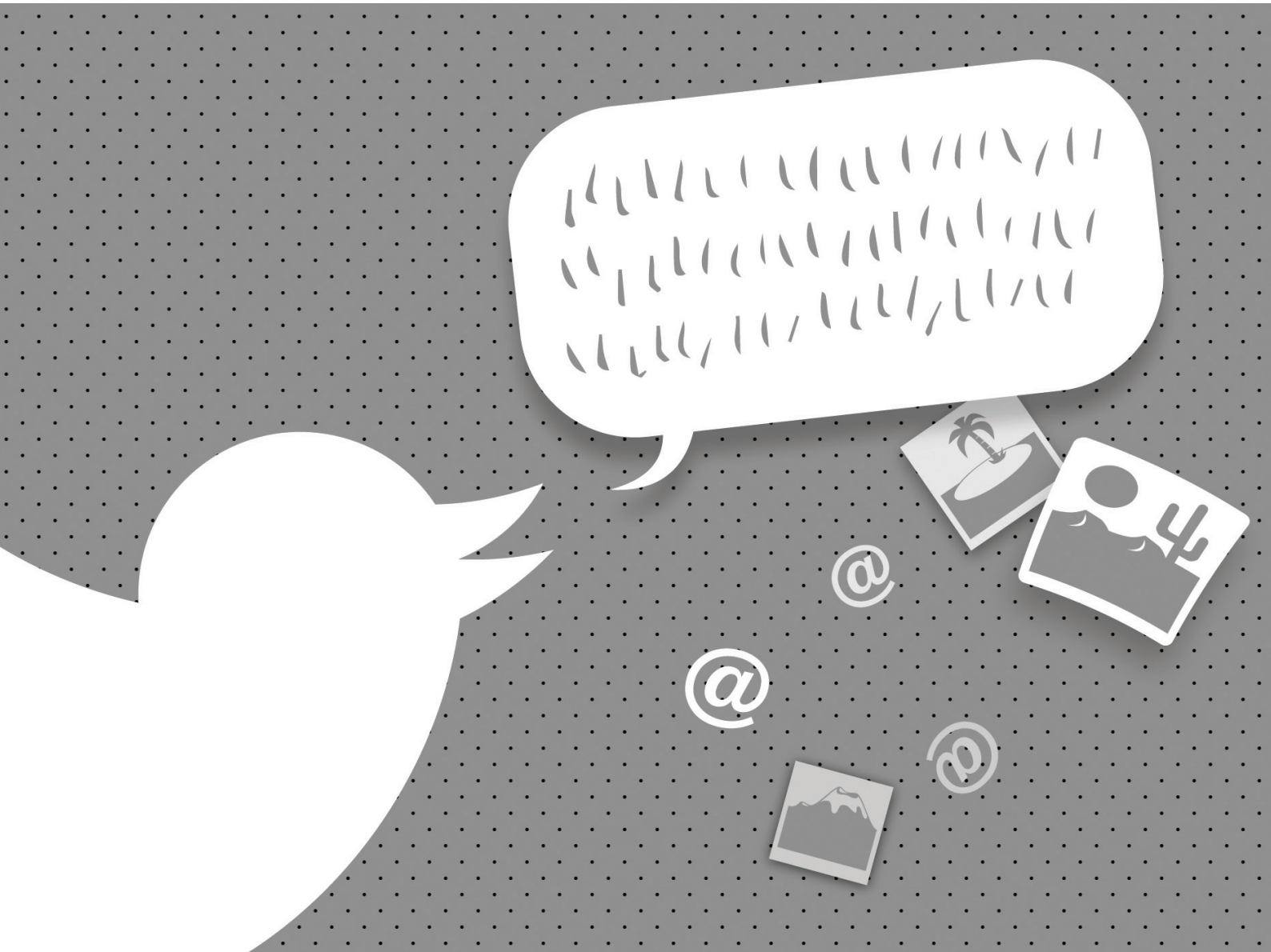

لا يقل أهميّة عن بقيّة أعضاء الفريق المشارك، فبعضهم متخصص في إثراء الجانب النظري، وبعضهم الآخر متخصص في المنهجيّة والقياس، وآخرون دورهم الأساسي يتمثل في ربط الجانب النظري بالتجريبي، وهكذا.

تسهم هذه الفرق البحثيّة التشاركيّة في إثراء أصول وتجويد قواعد البحث العلمي، وتجعله أكثر تنافسيّة على مستوى قبوله في أرقى المؤتمرات العالميّة وتعزيز فرص نشره في أهمّ المجلات العلميّة العالميّة المحكمة. هذا النَّمط من التشاركيّة في فرق البحث لم يقتصر كثقافة على مستوى القسم الداخلي للأعضاء، بل يتنوَّع الآن على المستوى الدولي، فلا غرابة أن نجد فريقًا بحثيًّا من الأكاديميين ينتمون إلى معاهد وكليات وجامعات من قارات مختلفة، ويتقنون لغات عديدة، ويتشاركون في نشر أبحاثهم في قواعد بيانات عالميّة باللغة الإنجليزيّة إلى جانب لغات أخرى.

عربيًّا، للأسف هذه الفرق موجودة ومُتاحه، لكنّها في الشكل ضعيفة البناء وغير مترابطة الأهداف. فالغاية والهدف النهائي منها هو "الترقية" الأكاديميّة وليس المساهمة في حل مشكلات المجتمع من خلال البحث العلمي. لذا، تجد فريقًا مكوَّنًا من باحثٍ رئيس وثلاثة أو أربعة باحثين، ويكون العبء بشكل أساسي على الباحث الرَّئيس دون أدنى مساهمة -في أغلب الأوقات- لبقيّة الفريق البحثيّ سوى أن توضع أسماؤهم لأغراض النَّشر، وهكذا يقوم الباحثون الآخرون بإضافة مَن سبق وأضافهم إلى أبحاثه في خطوة يمكن اعتبارها "سَدّ الدّين"؛ وهي أسوأ عادات البحث العلمي لأنَّها لا تنمّ عن عدم احترام دوْر البحث العلمي في التنمية وحل مشكلات المجتمع حسب، بل ينظر إلى البحث العلمي باستخفاف على أنَّه مجرَّد وسيلة لتعزيز المكانة الاجتماعيّة للباحث أو الحصول على امتياز مادي مقابل الترقية!!

من المحزن أنَّ المساهمة العربيّة في إنتاج المحتوى الإلكتروني عالميًّا شيء لا يُذكر، ولا يتجاوز نسب مئويّة خجولة جدًا أقلّ من عدد أصابع الكفّ الواحدة، وهذا يشمل القطاعات الحياتيّة كافّة، فلا غرابة إذن أن تكون مساهمة الباحثين العرب في المحتوى العلمي خجولة ومتواضعة جدًا.

يبقى القول، إنَّ هناك فرصًا محتملة لجيل شاب، متسلِّح علميًّا من أحدث الجامعات الغربيّة؛ وهو الجيل الذي تربّى وتشبّع أساسيّات استخدام التكنولوجيا الحديثة التي تعتبر الوعاء الذي يقدِّم المعرفة البشريّة بكل تجلّياتها، وهو جيل يؤمن بقوّة المعرفة وأهميّة مفاهيم المنافسة والجودة والعالميّة في البحث العلمي والجامعات التي ينتمون إليها في العالم العربيّ. باعتقادي أنَّ نكسة الجيل السابق الكلاسيكي من الباحثين العرب لن يكرِّرها جيل حداثي يقود لواء التَّغيير والإصلاح في الجامعات العربيّة ويعتبر المعرفة قوّة والمعلومة سلاح!! ■